تأمل أم براءة ؟؟

لا يدرك أحدنا جمال و عظمة الطفولة إلا عندما يولد من جديد... فالطفل جاهل لدرجة أنه غير قادر على إدراك البراءة الهائلة التي تحيط به، و حالما يدرك براءته تنعدم الفروق بينه و بين الحكيم، لا الحكيم أرفع و لا الطفل أوضع و الفرق الوحيد بينهما هو أن الطفل لا يعلم من هو والحكيم يعلم .

قال سقراط لمريديه في لحظات حياته الأخيرة « اعتدت في شبابي على الاعتقاد بأنني أعلم الكثير، وعندما أصبحت أكبر و ازددت بذلك علماً حدث شيء غريب... قادني شعوري بأنني أعلم الكثير لأصبح أقل علماً ! »

حدث أيضاً أن اختار حكيم مدينة دلفي اليونانية سقراط ليكون أحكم الناس الأمر الذي جعل سكان أثينا يشعرون بالفرح فذهبوا إلى سقراط ليخبروه بذلك، لكنه

قال لهم « عودوا إلى الحكيم و أخبروه بأنني لا أعلم شيئاً وبأن نبوءته قد أخطأت لمرة على الأقل...

صدم الأهالي و ذهبوا إلى الحكيم ليحملوا إليه جواب سقراط لكنه ضحك و قال « هذا ما جعلني أعتبره أحكم رجل في العالم، الجاهل فقط من يعتقد بأنه يعلم شيئاً.»

كلما تعلمت أكثر ازددت جهلاً .

يقسم سقراط الناس إلى فئتين : عارفون جاهلون و جاهلون عارفون و هذه الفئة الثانية هي من يحكم و يتحكم بالعالم و هي فئة الكهنة و القديسين و المخلصين؛ فئة الأساتذة و القادة و فئة الأنبياء... لأنها فئة من يدعي أنه يعلم شيئاً... هذا الادعاء عينه من دمر بساطة و براءة الطفولة.

أرسل أحد حكماء لهملايا و يدعى بودهي دهارما من قبل معلمه إلى الصين لينشر رسالة التأمل... مكث هناك أربعة عشر عاماً حيث أصبح له آلاف المريدين... تقدم في العمر وأراد العودة إلى موطنه حيث بإمكانه الآن الذوبان في

الثلوج الأبدية للهملايا... دعا أربعة فقط من مريديه و قال «أريد أن أسأل سؤالاً واحداً لا غير و سيكون خليفتي من يتمكن من الإجابة عليه... ما هو جوهر تعاليمي ؟ »

ساد صمت و ترقب... نظر الجميع إلى المريد الأول و الذي كان يعتبر الأكثر علماً و الأوسع اطلاعاً حيث قال «يمكن ببساطة التعبير عن جوهر تعاليمك بتجاوز الفكر و المضي أعمق منه.»

فقال الحكيم «حصلت على جلدي فقط، أما أعمق من ذلك، فلا.»

انتقل إلى المريد الثاني الذي قال «لا يوجد فرق بين من تجاوز الفكر و من يتوجب عليه تجاوزه، المهم في الأمر أن الصمت هو الأساس و الجوهر، هذا هو جوهر ما علمت.»

قال الحكيم «حصلت على عظامي.»

توجه الحكيم إلى المريد الثالث الذي قال «جوهر علمك أنه غير قابل للوصف.»

ضحك الحكيم و قال «لكنك عبرت عنه و وصفته بشيء... لقد قلت شيئاً... لقد حصلت على لب عظامي.»

توجه الحكيم أخيراً إلى المريد الرابع الذي لم يمتلك سوى الصمت و الدموع و لا أجوبة... ثم سقط على قدمي المعلم... و قبل على أنه الخليفة رغم أنه لم يجب بشيء.

لكنه في الحقيقة أجاب دون أجوبة؛ أجاب دون استخدام الكلمات و اللغات، أظهرت دموعه ما لا يمكن لأية لغة إظهاره أو احتواؤه؛ أظهرت دموعه ما يحمله من شكر و امتنان لهذا المعلم؛ أظهرت صلاة و تقوى... و هل يمكن قول أكثر من ذلك ؟

أصيب جمع المريدين بإحباط شديد لقبول رجل لم يعره أحد أي اهتمام أو انتباه، تم استبعاد العارفين العظام و لم يقبل العلماء الكبار و قبل إنسان «عادي.»

لكن هذه «العادية» هي الشيء الوحيد غير العادي في هذا العالم ... ذلك الفرح الطفو لي... ذلك الاختبار الطفولي لكل ما هو غريب في هذا العالم من حولنا .

هناك شيء واحد علينا تذكره... في اللحظة التي نبدأ فيها بمعرفة شيء ما نكف عن كوننا أطفالاً، بدأنا الآن نصبح جزءً من عالم البالغين و بدأ المجتمع يبسط سيطرته علينا ليقدمنا إلى عالم الحضارة؛ بدأ المجتمع ينتزع منا طبيعتنا و ينتزعنا من طبيعتنا.

عندما يكون الطفل محاطاً بالأسرار من كل الجهات، كل شيء غامض و لا أسئلة و لا أجوبة يبلغ ذلك الطفل أقصى درجة يمكن للحكيم بلوغها... في الحقيقة هذا ما يعد براءة الطفولة تعد تأملاً، لا بل لو بقي الإنسان محتفظاً ببراءة طفولته لما احتاج للتأمل بالأساس .

في الحقيقة تعود الكلمة الإنكليزية Meditation إلى نفس الجذر الذي تعود إليه الكلمة Medicine... التأمل علاج يا أخوتي، و متى يحتاج أحدنا علاجاً ؟ عندما يكون معتلاً بالطبع... يحتاج أحدنا إلى التأمل عندما يكون معتلاً روحياً، أما براءة الطفولة فهي السلامة و الصحة الروحية؛

براءة الأطفال هي كليتك الروحية و لا يحتاج الطفل لأي تأمل.

أراد طفل صغير الحصول على دراجة لكن والدته قالت «يمكنك الحصول عليها إذا اجتهدت على نفسك و أصبحت طفلاً جيداً...» الأمر الذي وعد به الطفل... بعد مضي أسبوع على هذه الحال وجد الطفل أنه من المستحيل أن يصبح طفلاً جيداً فاقترحت الوالدة «ربما يصبح الأمر أسهل لو كتبت رسالة إلى المسيح تطلب فيها أن يساعدك لتصبح طفلاً جيداً.»

ركض الطفل صاعداً الدرج إلى غرفته... جلس على السرير و بدأ يكتب «حبيبي المسيح ، لو ساعدتني بالحصول على دراجة فسأصبح جيداً بقية حياتي و أعدك بذلك.»

لكنه أدرك فوراً بأن هذا مستحيل لذلك عاد و بدأ الكتابة من جديد «حبيبي المسيح، لو ساعدتني بالحصول على دراجة فأعدك بأن أكون جيداً مدة شهر كامل.»

لكنه أدرك أيضا أن هذا مستحيل ثم خطرت بباله فكرة...

ذهب إلى غرفة والدته و سرق تمثال السيدة العذراء الذهبي و وضعه في علبة حذاء خبأها تحت السرير ثم عاد و كتب «حبيبي المسيح: إذا أردت رؤية والدتك مرة أخرى فعليك مساعدتي بالحصول على دراجة.»

انتقلت إحدى العائلات إلى منزلها الجديد، فسأل أحد الأقارب الزوار طفلاً صغيراً هناك عن رأيه بالمنزل الجديد فقال «إنه رائع، فقد أصبحت لي غرفتي، أصبح لأخي لا أيضاً غرفته المستقلة و أصبح لأختي غرفتها لكن والدتي المسكينة ما زالت في غرفة واحدة هي و والدي.»

و الآن بعض الحكم و النصائح للتفكر و التأمل علها تساعد علها تساعد البراءة الطفولية الساكنة و الكامنة فينا على الاستيقاظ.

«ابتسم، فإن الغد أسوأ.»

«لا يوجد ما يجعل المرأة تبدو كبيرة في العمر أكثر من لقاء ذلك الرجل الأصلع السمين الذي يعرفها في المدرسة.»

«لا يوجد فروق ضرورية مبررة بين الرجال و النساء، لكن غير الضروري منها هو الأجمل.»

«ما لا يمكن فعله في السرير فقد يكون من غير المجدي فعله.»

«يعتمد النجاح عند البعض على تحقيق الشهرة، و يعتمد عند بعضهم الآخر على ألا تكون معروفاً.»

«الأعمار السبعة للمرأة هي عمر حقيقي و ستة أعمار تحزيرية.»

«عادة ما تكون المرأة دائمة الحديث.»

«التقدم في العمر هو أن تستخدم نظارة و أنت تفكر.»

«ينتهي شهر العسل عندما تتوقف المرأة عن مناداتك حبيبي و تبدأ تقول لك اصمت.»

«ينتهي شهر العسل عندما يأتيك الكلب بالحذاء و تبدأ المرأة بالصراخ عليك.»

دفع الإنسان و لأسباب لا تصدق ليكون فريسة للجدية، فقد بنت الأديان قواعدها و أسسها لتسميمه، كما يجبر كل من يدخل في صراع القوة على تدمير فرح الإنسان وتدمير جمال براءة عينيه و على تدمير طفولته... تبدو قهقهة الأطفال أخطر عليهم من القنابل النووية.»

وهم محقون في ذلك... لو تمكن العالم من الضحك أكثر قليلاً مما هو عليه الآن فستقل الحروب... إذا بدأ العالم يحب براءته دون النظر لأي ثقافة أو معرفة ستختبر حياتنا نوعاً من الجمال و المعرفة نسيناه و افتقدناه طويلاً .

كتب أحد المريدين رسالة إلى أوشو يقول فيها أنه استجمع قواه لسبعة أعوام ليمتلك الشجاعة الكافية لكتابتها أما قبل فلم يستطع ثم يقول «عندما تورد أو تستشهد بنظرية علمية فغالباً ما تكون هذه النظرية قديمة أو غير عصرية» مدهش و غريب كلام هذا المريد لكنه يتكلم بلسان عصرنا و عالمنا، و لكن أتعتقد أنه بمقدور العلم أن

يكون حديثاً أو معاصراً ؟ بالطبع لا و هذا ما يؤكده أنصار العلم بشيء من الغرور .

في اللحظة التي تعتبر فيها النظرية العلمية حديثة تكون قد بدأت بالخروج من التاريخ... إن ما كان حديثاً بالأمس يصبح اليوم قديماً و مستهلكاً ، و كل ما هو حديث اليوم سيصبح في الغد قديماً و مستهلكاً... عند تأمل هذه الحماقة ألا ترى معي أنه من الأفضل التخلص من فكرة قديم و حديث.

قد ترد في مواضيعنا هذه بعض الإشارات لنظريات علمية لكن المقصود منها ليس النظرية أو شرحها بل الإشارة إلى ما هو أعمق، لذلك علينا ألا نضيع مع الإشارة فنفقد جوهر الموضوع، و أما هواة العلم و النظريات فلهم آلاف الكتب و الجامعات... أما هنا فلا نتحدث عن شيء سوى البراءة و عليه فالهدف معاكس و هو التخلص من كامل المعلومات القديمة و المستهلكة و إحداث تغيير جذري في حياتنا . {الأمر ليس بهذه البساطة }

اعتادت الأديان على التأكيد و التركيز على أن كل ما تقوله هو حقائق رغم ثبوت أن معظمه خرافات و أوهام ... ثلاثمائة عام مرت على انتقال زمام الأمور من الدين إلى العلم الذي بدأ أنصاره بالتأكيد على أن ما يقولونه هو الحقيقة... عادة قديمة ورثوها عن أنصار الأديان لكنهم سرعان ما أدركوا بأن النظريات الدينية قد استمرت لعشرة آلاف عام دون تغيير... استمرت النظريات الدينية لأنه لا توجد وسيلة لنعلم فيما لو كانت تلك النظرية حديثة أم غير حديثة، لا نستطيع معرفة فيما لو كان الله لا زال حياً أم أنه توفى، أو أنه مريض لذلك فقد بقية فكرته موجودة... و لكن هل هناك من يعلم بأنه قد ولد أم لا، و بنفس الطريقة عاشت فكرة الجنة و الجحيم لا لأنها حقائق بل ببساطة لأنها أساطير و لا يوجد مقياس للحكم عليها .و هكذا اتخذ العلم الموقف نفسه من نظرياته و لكن ما تظهر التناقضات و المغالطات و الأخطاء رغم أن العلم يتحدث عن حقائق و ليس عن

خرافات و أساطير، لكن الحقيقة الكبرى في العلم أنه عليك تغيير نظرياتك كل يوم.

قيل في العلم أنه لا يمكنك كتابة كتاب كبير و شامل علمياً لأنك لن تنهي كتابته حتى يصبح كل ما فيه قديماً مستهلكاً، يمكنك أن تكتب أوراقاً قليلة و عليك الإسراع بعرضها على المؤتمرات و الملتقيات أو نشرها في الدوريات لأنك لست الوحيد في العالم فهناك العديدون ممن يعملون على الموضوع نفسه و ربما يأتي أحدهم بعمل أفضل مما عملت .

سؤل آينشتاين مرة « لو أنك لم تكتشف نظرية النسبية، أتعتقد أنها كانت ستكتشف من قبل أحدهم ؟ « بالطبع كان السائل يعتقد مثلما نعتقد نحن اليوم بأن تلك النظرية تتطلب فكراً كفكر آينشتاين ليأتي و يكتشفها، لكنه صدم عند سماع جواب آينشتاين «لو لم أكتشفها لاكتشفها أحدهم خلال فترة أقصاها ثلاثة أسابيع، يعمل

آلاف الفيزيائيين على الموضوع نفسه و كانت ضربة حظ بإسراعي في نشرها.»

و لقد وجد بالفعل أن فيزيائياً ألمانياً آخراً قد اكتشف النظرية نفسها قبل آينشتاين لكنه كان رجلاً كسولاً فتباطأ بنشرها ظناً منه بأن أحداً لا يمكنه اكتشاف نظرية بهذا التعقيد... و لم التسرع !!!

و لكن أتظن بأن آينشتاين لا زال عالماً حديثاً و عصرياً ؟ بالطبع لا، فلا يمكن لأحد في العلم أن يبقى كذلك لأكثر من شهور قليلة.

لا، لا يجب أن يستحوذ علينا كل مؤقت، و كل قابل للزوال السريع أو البطيء، بل علينا أن نوجه أنظارنا نحو الأبدية و لا علاقة لهذه الأخيرة لا بالعلم و لا بالمعلومات بل بالبراءة و الأسرار.

كن كالطفل براءة و افتح عينيك لا تبق فيهما آثاراً لشيء... انظر بجلاء و عندها يمكن لأي وردة صغيرة أو لأي ورقة صغيرة لنبتة؛ يمكن لأي فراشة أو يمكن لغروب

الشمس أن يمنحك فرحاً كما فرح كبار المعلمين بالاستنارة... ليست المسألة مسألة أشياء و إنما مسألة عيون مفتوحة و تعمل كل من الثقافة و المعلومات على إغلاقهما لك و تحصرانك في سجن على حين تفتح البراءة كل الأبواب و النوافذ.

و عندها تدخل الشمس و يمر النسيم البارد...

و يفاجئك عطر الزهور بزيارته لك...

ربما يأتي أحد الطيور ليغني أغنيته و يمر عبر أحد النوافذ... البراءة هي التدين و الدين الحقيقي ...

لا يتوقف تدينك على كتبك و نصوصك المقدسة و لا على ما تعرفه عن هذا العالم إنما يتوقف على مقدار استعدادك لتكون كمرآة نظيفة نقية دون أن ينعكس عنك شيء.

صمت كلي، براءة و نقاء هذا كل ما تحتاجه ثم سترى الوجود يتحول لأجلك، لتصبح كل لحظة عامرة بالنشوة... لتصبح الأشياء؛ ليصبح ارتشاف فنجان من الشاي صلاة، ولا يمكن لصلاة أخرى أن تقارن بهذه... فقط تأمل الغيوم

كيف تلهو في السماء بحرية ثم تتوافق و تنسجم ببراءة تامة.

لكن الغيوم ليست سوى أشياء و أنت هو السيد الوحيد... انظر كيف تتحد و تذوب سوياً فابدأ التحليق معها.

ابدأ الرقص مع الأمطار و مع الأشجار... ابدأ الغناء مع الطيور... ابدأ الرقص مع الطاووس دون حراك... اجلس فقط و سيبدأ عيك بالانتشار في كل مكان.

يولد الدين فيك عندما تلامس بوعيك الوجود، و عندها تولد من جديد... إنها ولادتك الحقيقية.

ولادتك الحقيقية هي علاقتك بمعلمك...

لكل إنسان ولادتان... ولادة أولى من الأب و الأم و هي ليست سوى بوابة عبور و ولادة ثانية حقيقية بين المعلم والمريد و هي التي تفتح أمامك كل الأبواب لتكتشف كل الأسرار... لتصبح الحياة مغامرة وكل لحظاتها نشوة و كل أيامها إثارة... لا تتلاشى الحياة بالموت و لا يموت النهار بظلمة الليل... ستكتشف فجأة بأن الليل و النهار ما

هما سوى جناحين لطائر واحد؛ و ما الموت و الحياة سوى جناحين لطائر واحد...

سماء الوعي كاملة لك... لست بحاجة لتكون مسيحياً؛ لست بحاجة لتكون محمدياً و لست بحاجة لتضع على نفسك أي ختم و طابع و كل ما تحتاجه هو أن تكون طفلاً .

obeikandl.com